محمد عطية الإبراشي

صَلاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ وَبَيْتُ المَقْدِسِ

قِصَصٌ إسْلامِيَّةٌ لِلأَطْفالِ

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

وَقَدْ سُرَّ صَلاحُ الدِّينِ سُرورًا كَثِيرًا حِينَما رَأى حُبَّ الشَّعْبِ لَهُ ، فَأَعْلَنَ أَنَّهُ سَيَلْتَزِمُ العَدْلَ في حُكْمِهِ ، وَأَنَّ بابَهُ مَفْتوحٌ لِكُلِّ طالِبِ حاجَةٍ ، وَلَنْ يَتْرُكَ مُفْسِدًا أَوْ ظالِمًا يَسْتَمِرُّ في ظُلْمِهِ وَعُدْوانِهِ . وَقَدْ وَفى بِما وَعَدَ ، وَلَمْ يُخْلِفْ وَعْدَهُ .

وَحِينَما اطْمَأَنَّ عَلى مِصْرَ ، وَقَوِيَ مَرْكَزُهُ بِها ، أَخَذَ يُفَكِّرُ في تَنْفيذِ الرَّغْبَةِ الَّتي كانَ يَشْتاقُ إِلَيْها وَهُوَ شابٌّ ، مِنْ طَرْدِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ الإِفْرِنْجِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَإِنْقاذِ المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَذاهُمْ .

فَجَهَّزَ جَيْشًا مِصْرِيًّا قَوِيًّا كامِلَ الأَسْلِحَةِ ، كَثِيرَ العَدَدِ ، وَقادَهُ بِنَفْسِهِ ، بَعْدَ أَنْ بَثَّ وَنَشَرَ رُوحَ الشَّجاعَةِ وَالإِقْدامِ ، وَالصَّبْرِ وَالإِيمانِ في نُفُوسِ جُنُودِهِ . وَذَكَّرَهُمْ بِأَنَّ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ سَيَكُونُ مِنَ

الشُّهَداءِ المُؤْمِنينَ المُجاهِدينَ .

سارَ الجَيْشُ فى حَماسَةٍ وَشَجاعَةٍ ، وَقَطَعَ صَحْراءَ سِيناءَ فى أَيَّامٍ شَديدَةِ الحَرِّ فى فَصْلِ الصَّيْفِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَضْعُفَ قُوَّتُهُ ، أَوْ تَقِلَّ عَزيمَتُهُ ، أَوْ يُصيبَهُ تَعَبٌ ، حَتَّى وَصَلَ الجَيْشُ كُلُّهُ إلَى دِمَشْقَ بِسُورِيَةَ .

وَكانَتْ فى ذٰلِكَ الوَقْتِ خاضِعَةً لِلصَّليبِيِّينَ ، فَفَتَحَها الجَيْشُ المِصْرِيُّ بَعْدَ قِتالٍ لَمْ يَدُمْ طَويلًا .

ثُمَّ تَقَدَّمَ إلَى البِلادِ الأُخْرَى يَفْتَحُها ، وَكُلَّما اقْتَرَبَ مِنْ بَلَدٍ مِنَ البِلادِ انْتَشَرَ الخَوْفُ فى نُفوسِ الحُرَّاسِ الَّذينَ يَحْرُسونَها ، وَجَرَوْا هارِبينَ مِنْ وَجْهِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَجَيْشِهِ المِصْرِيِّ الشُّجاعِ .

ذِهابُهُ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ :

وَأَخيرًا ذَهَبَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَحاصَرَهُ حِصارًا شَديدًا ، وَأَظْهَرَ صَلاحُ الدِّينِ مِنَ الشَّجاعَةِ ما أَدْهَشَ القُوّادَ مِنَ الصَّليبيِّينَ . وَلَمّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لا يَسْتَطيعونَ الوُقوفَ أَمامَهُ ، وَلا يُمْكِنُهُمْ رَدُّهُ عَنْ دُخولِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، سَلَّمُوا لَهُ المَدينَةَ .

دَخَلَ جَيْشُ صَلاحِ الدِّينِ بَيْتَ المَقْدِسِ مُنْتَصِرًا عَلَى الأَعْداءِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ إِنْسانًا ، وَلَمْ يَأْسِرْ أَحَدًا ، وَلَمْ تَنْهَبْ جُيوشُهُ بَيْتًا مِنَ البُيوتِ ؛ فَقَدْ أَمَّنَ الجَميعَ عَلَى أَمْوالِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ ، وَعامَلَ الكُلَّ بِالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَعَجِبَ الأَعْداءُ كَثيرًا لِعَدْلِهِ ، وَشَفَقَتِهِ ، وَحُسْنِ مُعامَلَتِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ رَأَى عَدَدًا كَبيرًا مِنَ

الإفْرِنْج يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ وَالِدَيْهِ الضَّعِيفَيْنِ ، أَوْ أَقَارِبَهُ المَرْضَى ، فَأَثَّرَ فِيهِ هٰذَا المَنْظَرُ ، فَأَمَرَ بِالمَالِ فَأُعْطِيَ لَهُمْ ، وَبِالدَّوَابِّ فَوُزِّعَتْ عَلَيْهِمْ ، لِتَحْمِلَ أَمْتِعَتَهُمْ وَضُعَفَاءَهُمْ .

صَلاحُ الدِّينِ وَالفَتَاةُ الفَرَنْسِيَّةُ الأَسِيرَةُ :

حِينَمَا جُمِعَتْ غَنَائِمُ الحَرْبِ ، وَقُسِّمَتْ بَيْنَ الجُنُودِ وَالأُمَرَاءِ ، تَنَازَلَ صَلاحُ الدِّينِ عَنْ نَصِيبِهِ لِلْفُقَرَاءِ مِنَ المَسِيحِيِّينَ ، وَجَعَلَ الأَسْرَى الَّذِينَ كَانُوا مِنْ نَصِيبِهِ أَحْرَارًا . وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الأَسْرَى فَتَاةٌ فَرَنْسِيَّةٌ ، فَتَقَدَّمَتْ جِهَتَهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : لَقَدْ قَتَلْتَ أَبِي فِي الحَرْبِ أَيُّهَا المُجْرِمُ القَتَّالُ ، وَأَسَرْتَ أَخَوَيْنِ لِي . وَأَخَذْتَ أَمْلاكَنَا الَّتِي كُنَّا نَمْلِكُهَا ، وَلَمْ يَبْقَ لِي مَنْ يُنْفِقُ عَلَيَّ ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ تَمُنُّ عَلَيَّ بِجَعْلِي حُرَّةً ، لِيَزْدَادَ تَعَبِي وَعَذَابِي .

ضَبَطَ صَلاحُ الدِّينِ نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَتَأَثَّرْ مِنْ شَتائِمِها المُرَّةِ ، بَلْ عَفَا عَنْها ، وَابْتَسَمَ فِى وَجْهِها ، وَسَأَلَها : مَا اسْمُ أَخَوَيْكِ ؟ فَذَكَرَتْ لَهُ اسْمَيْهِما ، فَأَرْسَلَ جُنْدِيًّا لِيُحْضِرَهُمَا ، فَحَضَرا ، وَحَضَرَ مَعَهُما القائِدُ الَّذِى كانَ الأَخَوانِ مِنْ نَصِيبِهِ ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ صَلاحُ الدِّينِ أَنْ يَبِيعَهُ هٰذَيْنِ الأَسِيرَيْنِ . فَامْتَنَعَ القائِدُ عَنْ أَخْذِ الثَّمَنِ عِنْدَما عَرَفَ غَرَضَ سَيِّدِهِ . وَتَرَكَهُما حُرَّيْنِ ، وَلٰكِنَّ صَلاحَ الدِّينِ صَمَّمَ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ لِلْقائِدِ ثَمَنَهُما مُضَاعَفًا . ثُمَّ رَدَّ لَهُما أَمْلاكَهُما ، ثُمَّ سَأَلَ الفَتاةَ : هَلْ مازِلْتِ عِنْدَ رَأْيِكِ مِنْ أَنِّى مُجْرِمٌ قَتَّالٌ ؟

فَأَجابَتِ الفَتاةُ : عَفْوًا يا سَيِّدِى . فَإِنَّما هِىَ شِدَّةُ الحُزْنِ عَلَى أَبِى الَّذِى قُتِلَ فِى الحَرْبِ وَأَسْرِ مَنْ كانَ يُنْفِقُ عَلَىَّ ، وَضَياعِ مالِى ، وَما كُنْتُ أَسْمَعُهُ فِى بِلادِى خَطَأً عَنْ ظُلْمِ المُسْلِمِينَ ، كُلُّ هٰذا جَعَلَنِى

أَقُولُ أَشْياءَ لا أَفْهَمُها . وَأَرْجو مِنْكَ الصَّفْحَ وَالعَفْوَ يا سَيِّدِي .

وَحِينَما أَرادَت الانْصِرافَ سَأَلَها صَلاحُ الدِّينِ : إِلَى أَيْنَ أَنْتِ ذَاهِبَةٌ ؟ فَأَجابَتْ إِلَى بِلادِي .

فَسَأَلَها : وَماذَا سَتَقُولِينَ لِقَوْمِكِ ؟

أَجابَتْ : سَأَقُولُ لِلْمُتَعَصِّبِينَ مِنْهُمْ كَلِمَةَ الحَقِّ عَنِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِينَ . ثُمَّ تَرَكَت بَيْتَ المَقْدِسِ هِيَ وَأَخُواهَا . بَعْدَ أَنْ أَسْلَمُوا .

فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى قَوْمِها أَخَذَتْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الإِسْلامِ ، وَتَذْكُرُ لَهُمْ مَحاسِنَهُ ، وَتَحْكِي مارَأَتْهُ بِنَفْسِها مِنْ حُسْنِ مُعامَلَةِ المُسْلِمِينَ لَها . وَعَدْلِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَشَفَقَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَنُبْلِهِ وَإِنْسانِيَّتِهِ .

فَلَمْ تُعْجِبْهُمْ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلامِ مِنْ فَتاةٍ

مِنْهُمْ ، وَاتَّفَقُوا فِيما بَيْنَهُمْ سِرًّا عَلَى قَتْلِها .
وَقَتَلُوها ظُلْمًا ؛ لِأَنَّها تَقولُ الصِّدْقَ ، وَتَدْعُو إِلَى
الحَقِّ ، وَتُنادِى بِالإِسْلامِ . فَماتَتْ شَهيدَةً مُجاهِدَةً
فى سَبيلِ اللّهِ .

صَلاحُ الدِّينِ وَالرَّجُلُ المَسيحِىُّ الكَبيرُ السِّنِّ :

كانَ صَلاحُ الدِّينِ ماشِيًا فى طُرُقاتِ بَيْتِ المَقْدِسِ ،
فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مَسيحِىٌّ كَبيرُ السِّنِّ ، يُعَلِّقُ
صَليبًا ذَهَبِيًّا فى رَقَبَتِهِ ، وَقالَ لَهُ :

أَيُّها القائِدُ العَظيمُ ، لَقَدْ كُتِبَ لَكَ النَّصْرُ عَلى
أَعْدائِكَ ، فَلِماذا لَمْ تُعَذِّبْهُمْ ؟ وَلِماذا لَمْ تَنْتَقِمْ
مِنْهُمْ ، وَتَفْعَلْ مَعَهُمْ مِثْلَ ما فَعَلُوا مَعَكُمْ ؟ وَأَنْتَ
تَعْلَمُ حَقًّا أَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا كَثيرًا مِنَ الفَظائِعِ ، وَنَهَبُوا
الأَمْوالَ ، وَقَتَلُوا النِّساءَ وَالأَطْفالَ وَالرِّجالَ حِينَما

فَتَحُوا بَيْتَ المَقْدِسِ .

فَقالَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ : أَيُّها الشَّيْخُ ، إِنَّ دِينِى يَمْنَعُنِى مِنْ تَعْذِيبِ أَىِّ إِنْسانٍ ، وَضَمِيرِى يَمْنَعُنِى مِنَ الِانْتِقامِ . وَلَنْ أَفْعَلَ مِثْلَ مافَعَلُوا .

فَقالَ لَهُ الشَّيْخُ : وَهَلْ دِينُكُمْ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الِانْتِقامِ مِنْ قَوْمٍ بَدَءُوكُمْ بِالعَداوَةِ ، وَعَذَّبُوا النَّاسَ بِكُلِّ أَنْواعِ العَذابِ ؟

فَأَجابَهُ صَلاحُ الدِّينِ : نَعَمْ إِنَّ دِينَنا يَمْنَعُنا أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ أَعْدائِنا فى عِنادِهِمْ ، وَيَأْمُرُنا أَنْ نَفِىَ بِوُعُودِنا ، وَأَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْنا ، وَنَصْفَحَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ عَمَّنْ أَذْنَبَ .

فَقالَ الشَّيْخُ : نِعْمَ الدِّينُ دِينُكُمْ . وَإِنِّى أَحْمَدُ اللهَ عَلَى أَنْ هَدانِى فى أَيَّامِى الأَخِيرَةِ مِنْ هٰذِهِ الحَياةِ . ثُمَّ سَأَلَ : وَماذا يَفْعَلُ مَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ

فى دِينِكُمْ ؟

فَأَجابَهُ صَلاحُ الدِّينِ : يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ ، وَمُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولُهُ ، وَيفْعَلُ ما أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ، وَيَبْتَعِدُ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ .

وَعِنْدَ ذٰلِكَ أَسْلَمَ الرَّجُلُ ، وَحَسُنَ إِسْلامُهُ ، وَأَسْلَمَ مَعَهُ كَثِيرٌ مِنْ أَبْناءِ قَوْمِهِ .

صَلاحُ الدِّينِ وَالسَّيِّدَةُ المَسِيحِيَّةُ الحَزِينَةُ :

ذَاتَ يَوْمٍ كانَ جالِسًا فى خَيْمَتِهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالعَدْلِ . فَوَقَفَتْ أَمامَ الخَيْمَةِ سَيِّدَةٌ مَسِيحِيَّةٌ ، تَصِيحُ وَالحُزْنُ يَخْنُقُ صَوْتَها ، حَتَّى ارْتَمَتْ عَلَى الأَرْضِ ، فَأَبْعَدَها الحُرَّاسُ عَنِ الخَيْمَةِ ، وَلٰكِنَّ صَلاحَ الدِّينِ حِينَما سَمِعَ صَوْتَها أَمَرَ بِإِدْخالِها فى الحالِ . فَأُدْخِلَتْ وَسَأَلَها :

لِماذا تبْكِينَ أيَّتُها السَّيِّدَةُ ؟

فَأجَابَتْ : لَقَدِ اخْتَطَفَ اللُّصُوصُ ابْنِى الصَّغيرَ ، وَأُسِرَ زَوْجِى فى الحَرْبِ ، وَهُوَ الَّذِى يُنْفِقُ عَلَيَّ .

فَتَألَّمَ صَلاحُ الدِّينِ ، وَحَزِنَ كَثِيرًا لِحَالِهَا ، وَأمَرَ فى الحَالِ بإخْرَاجِ زَوْجِها مِنْ بَيْنِ الأَسْرَى . ثُمَّ طَلَبَ مِنْ جُنودِهِ البَحْثَ عَنْ ابْنِها المَخْطُوفِ . فَأحْضَرُوهُ لِأُمِّهِ ، فَفَرِحَت السَّيِّدَةُ كَثِيرًا ، وَأخَذَتْ تَدْعُو لِصَلاحِ الدِّينِ أنْ يُبارِكَ اللَّهُ فى عُمْرِهِ .

فَقالَ صَلاحُ الدِّينِ : إنَّنا لَمْ نَفْعَلْ إلَّا ما أمَرَنا بِهِ دِينُنا الكَرِيمُ .

فَسَألَتْهُ السَّيِّدَةُ : هَلْ يَأمُرُ دِينُكُمْ ياسَيِّدِى بالرَّحْمَةِ وَالعَطْفِ عَلَى الأعْدَاءِ ، وَمُسَاعَدَةِ الضُّعَفاءِ ؟

فَأجَابَ صَلاحُ الدِّينِ : نَعَمْ ياسَيِّدَتِى ، فَالإسْلامُ

دِينُ اللهِ فى هٰذِهِ الدُّنْيا ، وَهُوَ رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، وَسَلامٌ لِكُلِّ الشُّعوبِ .

قالَت السَّيِّدَةُ : لَقَدْ أَحْبَبْتُ هٰذَا الدِّينَ الكَرِيمَ مِنْ أَخْلاقِكُم النَّبِيلَةِ ، فَكَيْفَ أَكُونُ مُسْلِمَةً ؟

قالَ صَلاحُ الدِّينِ : طَرِيقَةُ الإِسْلامِ سَهْلَةٌ . تَشْهَدِينَ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ .

فَنَطَقَتِ المَرْأَةُ بِالشَّهادَتَيْنِ ، وَأَسْلَمَتْ ، وَأَسْلَمَ مَعَها زَوْجُها الَّذِى كانَ أَسِيرًا ، بِفَضْلِ رَحْمَةِ هٰذَا البَطَلِ العَظِيمِ .